

الملاحم الغربة والحنين في منظومة "الحنين" للشاعر المجدوب رشيد أيوب

قراءة تأويلية في الشكل والمضمون

the features of alienation and nostalgia in the poem "*Hanin*" of the poet of the diaspora
"Rasheed Ayoub" An interpretive reading in form and content

محمد بونخطوط

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل (الجزائر)

mohammed.boulektout@gmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الارسل
2019-01-18	2019-01-02	2018-12-06

ملخص:

إنّ من بين أهم الظواهر التي ميّزت العالم العربي في العصر الحديث (عصر التغيرات الجذرية) ظاهرة هجرة الأدباء العرب للعالم الغربي، ومن بين أكثر الوجهات التي استقطبت هؤلاء الأدباء كانت "أمريكا" بما تحمله هذه الكلمة من دلالات وإيحاءات لذلك العالم الجديد؛ هذا العالم الذي كان يراه هؤلاء الأدباء بديلا عن واقع صعب عاشوه وتعايشوا معه في أوطانهم، ولكن هذه الهجرة لم تكن تفرّ دون عقبات وعوائق، فقد تجرّع هؤلاء الأدباء الأمرين، ولعلّ أهم ما واجه هذه الفئة المهاجرة هو الغربة أو الشعور بالحنين مرة أخرى إلى الأوطان والأهل والأحباب....، هذا وقد كانت هجرة اللبنانيين هي الأكثر اتساعا، حيث هاجرت طائفة كبيرة إلى ذلك العالم الجديد، وكان من بين المهاجرين الشاعر "رشيد أيوب"، إذ شغلت مواضيع الغربة والحنين، مساحة كبيرة من إبداعاته الأدبية عموما، والشعرية على وجه الخصوص، ومعلوم أنّ الشكوى من آلام الغربة ومشتقاتها وفي الحنين إلى الوطن وأهله، يبلغ الشاعر المهجري الغاية التي لا مزيد بعدها لمستزيد.

هذا وسنحاول في هذا البحث استجلاء مواطن وملاحم الغربة والحنين عند هذا الشاعر من خلال قصيدته "حنين".

الكلمات المفتاحية: الغربة، الحنين، الشعر، الأدب، المهجر.

Abstract:

One of the most important phenomena that the Arab world has witnessed recently is the Arab writers migration to the Western world, and the USA was the most attractive pole for those writers and poets. That was due to the fact that everything related to the USA represents and reflects the notion of the new world, which was a substitute for the tough reality those writers and poets witnessed and lived in their countries. This migration couldn't pass without some obstacles and difficulties though it could be argued that the most difficulty those writers and poets faced was the obnoxious Nostalgia for their people and homes. Moreover, the majority of those migrants wear Lebanese, and one of them was the poet "Rasheed Ayoub", which resulted in the topics of alienation, and Nostalgia occupying a significant space in his literary works generally, and his poetry specifically.

It is known that the poet shows his wishes to be home again in his works through complaint about alienation and nostalgia.

Additionally we will try in this research paper to showcase the instances of alienation and nostalgia In the works of this poet, through his poem: nostalgia "*hanin*".

keywords: alienation, nostalgia, poetry, literature, the diaspora.

مقدمة:

إنّ الحنين إلى الأهل والأحباب والأوطان على وجه التحديد غريزة في النفوس، سواء أكان عند الإنسان أم عند الحيوان، يتجلى ذلك في حنين الإبل إلى أوطانها والقطط إلى صغارها والطيور إلى أعشاشها، التي مهما أخذت وأبعدت عنها إلّا أنّها تعود إلى أوكارها، قاطعة بذلك مئات الأميال بل الآلاف حتى تجد قرارة نفسها في وطنها، وإذا كان هذا هو حال الحيوان، فكيف لا يحنّ المرء إلى أهله وأرضه مهما عاش فيها من حرمان وبؤس، وعان من الظلم والجوع والفاقة؟

والحنين إلى الأوطان والأحباب والأهل والتراب... ظاهرة إنسانية عامّة في نفوس البشر، وإن كان حبّ الأوطان عند العرب أكثر وضوحاً، لأنّ الشعر سجّل هذه الظاهرة منذ الجاهلية، وحتى العصر الحديث مع اختلاف يسير فيما بين البدوي والحضري، وللوطن في كل بيئة أثراً واضحاً في سلوك الإنسان وتفكيره، ومظهره من حيث الملبس والمأكل والطباع والعادات والمثل العليا، ولكلّ شعب صفاته وعاداته ومثله. وإذا كان الحنين نتيجة، فإن الغربة لا محالة سببا لحدوثها وقيامها. فما هو المقصود بالغربة والحنين؟ وما هي أنواعهما ومظاهرها؟ ثمّ كيف تجسّدت ملاحظتهما في نصّ قصيدة "حنين"؟

أولاً: ظاهرة الغربة والحنين على مستوى الشعر المهجري:

1- الغربة:

أ/ تعريفها لغة:

جاء في "لسان العرب" لابن منظور: «الغربة - الغُربُ: النزوح عن الوطن والاعتراب، ورجل غُربٌ بضمّ الغين والراء، وغريبٌ بعيد عن وطنه، الجمع: غرباء،... والغرباء: الأبعد».⁽¹⁾ وعليه فإنّ الغربة في معناها اللغوي تدور حول المعاني التالية: البعد والفراق والغياب والنوى والبين.

وبوجه عام فإنّ الغربة في معناها اللغوي تحيل على: «الابتعاد والتنحي عن الناس، وفي معناها الديني: الترفع عن موبقات الدنيا، وفي المعنى الاجتماعي: عدم التلاؤم بين الذات المغتربة وبين عادات المجتمع وتقاليده، وفي المعنى السياسي: الرفض لمجموعة من القوانين الجبرية التي تحكم الوطن وأحياناً التصدي لها والثورة عليها»⁽²⁾، وفي هذا التعريف إحالة على بعض أنواع الغربة نحو: الغربة المكانية والزمانية، الغربة الدينية والروحية، الغربة النفسية، الغربة الاجتماعية، والغربة السياسية.

ب/ تعريفها اصطلاحاً:

«إنّ مقابل كلمة "الغربة والاعتراب" في اللغة الفرنسية "Aliénation" وأصلها من الكلمة اللاتينية "أليئاتو" "Alienatio"، ويشير الاعتراب في تلك اللغات إلى حالة تحوّل الكائن إلى خارج ذاته أو تجاوز ذاته، وقد استخدمت كلمة الاعتراب في العلاقات الإنسانية لتدل على الإحساس الذاتي بالغربة أو الانسلاخ "Detachment"، سواء عن الذات أو عن الآخرين»⁽³⁾، أمّا الكلمة في اللغة العربية فتدل على معنيين: الأول

يحيل على "الغربة المكانية"، والثاني على "الغربة الاجتماعية"، وعليه فإن معنى الغربة اصطلاحاً يتفق إلى حد كبير مع معناها في اللغة، بمعنى أن الكلمة تحمل في ثناياها معنى البين والنوى والبعد والحزن والشؤم، وفي ذلك يتقاطع الاعترا ب مع الغربة، هذه الأخيرة التي غالباً ما يكون الدافع إليها اضطراري فيه إكراه، بحيث يكون المغترب في هذه الحالة مجبر لا مخير لجملة من الظروف والأسباب، في حين يكون الاعترا ب طوعي يختاره الإنسان لأسباب قد تكون سياسية (قهر الاستعمار) أو اجتماعية (الفقر والفاقة) أو اقتصادية (الجوع والبحث عن الرزق).... كما أن الغربة هي الابتعاد عن الأهل والأبناء والغياب عن الوطن والشعور بالحنين - من جرّاء الوحدة والوحشة- إلى ذلك الوطن والشوق إلى العودة مهما كانت البواعث، واستطاعت هذه الكلمة أن تحافظ على نفس معناها منذ الجاهلية وإلى العصر الحديث، حيث بقي معنى البعد والنوى يتردد نفسه في كتب المؤلفين وحتى وقتنا الحاضر، ولعلّ هذا المعنى حملة أول كتاب خاص بظاهرة الغربة والحنين في الأدب العربي وهو "أدب الغرباء" لصاحبه "أبو الفرج الأصفهاني". فليس هناك ما يجعل كلمة الغربة في معناها اللغوي يختلف عن معناها في الاصطلاح، فكلاهما يشيران إلى معنى البعد؛ وهذا البعد قد يكون بعداً زمنياً يحس فيه المرء أنه غريب فإن، لا بدّ من يوم يأتي عليه ويبعده عن أهله وأحبابه (الموت)، أو بعداً مكانياً يكون فيه الإنسان بعيداً عن أهله لظروف أرغمته على ذلك، أو يكون بينهم ولكن في الوقت نفسه غريباً عنهم، لأنه اتخذ العزلة الاجتماعية ملاذاً ومهرباً له.

يذكر "الجاحظ" في كتابه "الحيوان" كلاماً كثيراً عن تشاؤم العرب من الغراب فيقول: «ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة والاعترا ب والغريب»⁽⁴⁾، وفي ذات السياق نجده يعلّل سبب تداخل وتلاحم كل من "الغربة" و"الغراب" فيقول: «إنما لزمه هذا الاسم لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة وقع في مرائب بيوتهم يتلمّس ويتقمّم فيتشاءمون ويتطيّرون منه، إذ كان لا يعتري منازلهم إلّا إذا بانوا فسمّوه غراب البين»⁽⁵⁾.

نخلص في الأخير إلى أن هذا المصطلح العربي يفيد في أكثره معنى البعد عن الوطن والاشتياق إلى الأهل، وهو معنى مكاني أكثر منه زماني كما نلاحظ.

ج/ مظاهر الغربة:

إنّ المغترب في بلاد الغربة يشتاق إلى الأهل والوطن ويأتي العيد وكل حبيب يضاحك حبيبه، أمّا هو فن يضاحك في غربته؟! وفي عينه دموع الشوق والاعترا ب، فقد كبر البعد وعزّ اللقاء، وقد تجلّت وتجدّت الغربة في جملة من الأبعاد والمظاهر ذكرها علماء النفس والاجتماع وسنذكرها هنا أبرزها، مجملين إياها في النقاط التالية:

1- العجز (Pouer lessness):

«فأمّا العجز فهو شعور الفرد بأن لا حول ولا قوة له، فهو دائم الإحساس بعجزه عن تحقيق ذاته وممارسة السيطرة على نفسه، لأن الأشياء حوله تسيطر عليها ظروف خارجية أقوى منه»⁽⁶⁾.

2- اللا معنى (Meaning lessness):

ويسمى كذلك بفقدان المعنى أو انعدام المغزى، والمراد منه أن الإنسان يشعر بأنه لا قيمة له في هذا الوجود، والذي يجعله يشعر بذلك هو عجزه عن توقع النتائج المستقبلية، فيرى أن هذا العالم يسير وفق منطق غير مفهوم ومبهم، فيحس بأن حياته تافهة لا معنى لها.⁽⁷⁾

3 - الاغتراب عن الوطن:

كان من أكثر الدوافع إلى الاغتراب: الفقر والبؤس الشديد الذي ذاق مرارته عامة الناس، وكذلك الذل والظلم الذي تعرضوا له من قبل الاستعمار المستبد، كل هذه الأسباب وغيرها دفعت أو شجعت أفواجا كبيرة إلى الابتعاد والاغتراب عن وطنهم، بحثا عن الأمن وسعيا إلى كسب لقمة العيش، وكذلك مما شجع الشعراء خاصة على الهجرة تفتت الدولة العربية الإسلامية وانقسامها إلى دويلات وتنافس القائمين عليها. وفي الاغتراب عن الوطن يقول "جبران خليل جبران" «أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي، وأحب بلادي بقسم من محبتي لأرض وطني، وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع الإنسانية وروح الألوهية على الأرض».⁽⁸⁾

4- العزلة الاجتماعية (Social isolation) والاغتراب عن المجتمع:

هناك تداخل كبير بين مصطلحي العزلة الاجتماعية والاغتراب عن المجتمع، يمكن إبراز ذلك فيما يلي:
أ/ العزلة الاجتماعية: ويراد بها «شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسي والافتقاد إلى الأمن والعلاقات الاجتماعية العميقة، والبعد عن الآخرين حتى وإن وجد بينهم، ويصاحب العزلة الشعور بالرفض الاجتماعي والانعزال عن الأهداف الثقافية للمجتمع، والانفصال بين أهداف الفرد وبين قيم المجتمع ومعاييره».⁽⁹⁾ يقول "ميخائيل نعيمة" في هذا الصدد:⁽¹⁰⁾

نبذته ضوضاء الحياة  فقال عنها وانفرد

وغدا جمادا لا يحن  ولا يميل إلى أحد

وغدا غريبا بين قوم  كان قبلا منهمو

ونشير هنا إلى أن العزلة الاجتماعية إنما جاءت بعد فقدان الأمل في تحقيق ما يصبو إليه الفرد من أهداف، حاول تحقيقها عبر الوسائل الاجتماعية الشرعية، إلا أنه فشل في ذلك.
ب/ الاغتراب عن المجتمع: والمراد به شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، كالشعور بالانفصال عن الآخرين، أو عن السلطة السياسية الحاكمة أو عن القيم والأعراف والعادات السائدة في المجتمع، فحين تبدل القيم والعادات نتيجة التغير الاجتماعي السريع، يشعر الكثيرون في المجتمع بالاغتراب نتيجة حسهم التاريخي بضياح القيم السلفية التي ألفوها وتأثروا بها، إضافة إلى ما يصاحب ذلك من إحساس بالألم والحسرة أو التشاؤم واليأس، وما يرافقه أحيانا من سخط أو تمرد أو نقمة أو ثورة... الخ.

يقول الشاعر المهجري "إيليا أبو ماضي" في قصيدته "في الفقر"، حينما أحسّ بانفصاله عن أفراد مجتمعه، فسخط عن هذا الواقع واغترب عن مجتمعه: (11)

سَمِئْتُ نفسي الحياة مع النَّاسِ وَمَلَّتْ حتى من الأَحبابِ
وتمشَّت فيها المِلالة حتى ضجرت من طعامهم والشرابِ
قلت أخرج من المدينة للفقر ففيه النجاة من أوصابي

إنَّ الشعور العميق والمؤلم بالاغتراب عن أي جانب من جوانب المجتمع، قد يصل إلى درجة لا تطاق، فيسعى المغترَّب إلى إيجاد أمور أخرى قد تخفِّف إحساسه بالاغتراب، الذي ما كان يمكن احتمالَه بغير ذلك، ويختلف الأشخاص في السبل التي يمكن من خلالها قهر اغترابهم، وتراوح هذه السبل بين السلبية والإيجابية، بين الاستسلام والتحدِّي، بين الانسحاب والمواجهة... الخ، وحتى الشخص الواحد قد يلجأ إلى أكثر من شكل واحد لمجابهة اغترابه.

5 - الاغتراب عن الذات (Seff estrangement):

ويراد به «عدم قدرة الفرد على التواصل مع نفسه وشعوره بالانفصال عما يرغب في أن يكون عليه، حيث تسير حياة الفرد بلا هدف ويشعر بالاغتراب عندما لا يستطيع التحكم بأفعاله، ويكون سلبيا عندما يستسلم لأفعاله وتناجها» (12)، ويشعر أنَّ لا معنى لحياته، كما يشعر باغترابه عن ذاته. وهو يعني «عجز الفرد وفشله في الحصول على الرضا الذاتي، أو في الشعور بأنَّ ليست لأفعاله قيمة في نظره، فهو يفقد صلته بذاته الحقيقية ولا يشعر بها إلا في حالات نادرة» (13)، وفي الاغتراب عن الذات يقول "جبران خليل جبران" في "البلاد المحجوبة": (14)

هو ذا الفجر، فقومي تنصرف عن بلاد ما لنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف زهره عن كل ورود وشقيق
وجديد القلب أنِّي يأتلف مع قلوب كل ما فيها عتيق

6 - اللامعيارية:

وتسمى أيضا: «الأنوميا» وهي حالة تصيب المجتمع، أي حالة انهيار المعايير التي تنظّم السلوك وتوجهه وذلك كلّ بسبب الاغتراب، بحيث تصبح السلوكات التي كانت مرفوضة في المجتمع سلوكات مقبولة، أي ما كان خطأ أصبح صوابا، وما كان صوابا أصبح ينظر إليه على أنّه خطأ». (15)

7- الهروب نحو الطبيعة:

لقد كانت الطبيعة ملجأ آخر، كثيرا ما لاذ به الشعراء على مختلف نزعاتهم، إمّا هاربين من الحياة مع النَّاس، وإمّا منطلقين من أفكارهم المادية أو الدينية التي تجعل الطبيعة وعناصرها ملكا للنَّاس جميعا، وهكذا فإننا نجد الكثير من الشعراء المحدثين يتركون المدينة وما فيها من كدّ وكيد وشقاء، ويهربون إلى الطبيعة لما

فيها من سكينه وبساطة وحرية، حيث يجد الكثير من هؤلاء مصاحبة الكلاب والطيور وصخور الجبال، خير أنيس وعوض عن مصاحبة الذئاب الإنسانية.

وعالم الغاب من الطبيعة هو عالم الرابطة القلبية، يدعون إلى العيش فيه ويرون فيه العالم الذي يحقق الحياة الهنيئة، فالشاعر المهجري تحدّث عن الغابة، وعن الليل وفيهما يجد السكينة والهدوء والوقار، وكأنّ الطبيعة بعناصرها المختلفة حققت له رغبة وأقرّت السكينة داخله، وهذا ما دفع الشاعر المهجري للهروب من ضجيج وجلبة المدينة وال عمران واللجوء إلى هدوء الطبيعة، دون أن ننسى البحر الذي كان له الحظ الأوفر من كتابات المهجريين والذي هو أشبه بعالم واسع يسرح فيه الفكر ويتعمّق التأمل، فيلجأ إليه الإنسان للترويح على نفسه ويشكو له حيرته وهمومه.

يقول "إيليا أبو ماضي" في قصيدة "الطبيعة"، وفيها يفرّ هارباً من زحمة المدينة وسكانها وصخبها إلى هدوء الطبيعة وسكينتها ووقارها، فهي مقر الغنى والثراء والحب، يقول: (16)

روض إذا زرته كثيباً نفّس عن قلبك الكروبا
يعيد قلب انخلي مغراً وينسي العاشق الحبيباً
صحّ فلو جاءه عليل لم يأت من بعده طيباً

ونشير هنا إلى أن هروب الشاعر قد يكون «هروباً صوفياً إلى السماء، يسمو الشاعر فيه عن صداقات البشر، ومحبة العباد إلى مناجاة الإله والارتباط بالمعبود، فراراً من العلاقات الإنسانية المشوهة التي لا يمكن أن تبوء بغير الخذلان والخيبة، كما أن الأنفة أو الكبرياء نوع من أنواع الانعزال والاعتزاف عن الذات، يمارسها بعض الشعراء على أنفسهم ليرتفعوا فوق رؤوس الناس وكأنهم يشعرون بأنهم من طينة أخرى غير طينتهم». (17)

2 - الحنين

أ/ تعريفه لغة:

جاء في "لسان العرب" "لابن منظور" أن الحنين هو: «الشوق وتوقان النفس، والمعنيان متقاربان، يقال: حنّ إليه يحنّ حناناً وحنيناً فهو حانّ، والاستحنان هو الاستطراب، واستحنّ: استطرب، وحنّت الإبل: نزعت إلى أوطانها وأولادها، وحنّت الناقة إلى ألافها، فهذا صوت مع نزاع (....)، والناقة تحنّ في إثر ولدها حنيناً: تطرب مع صوت، وقيل حنينها: نزاعها بصوت وبغير صوت، والأكثر أنّ الحنين بالصوت، وتحنّت الناقة على ولدها: تعطف (....)، والحنان: الذي يحنّ إلى الشيء والحنّة بالكسر: رقة القلب (....) والعرب تقول: حنانك يا رب وحنانك بمعنى واحد أي: رحمتك». (18)

نستنتج مما سبق ذكره أن كلمة "حنين" في معناها اللغوي تحيل إلى المعاني التالية: الشوق، الرحمة والعطف ورقة القلب، الطرب والاستطراب، الصوت بالطرب أو التوجع، النزوع (الميل) بالصوت وبغيره، الجرح العميق، الناقة أو الشاة، المرأة.

ب/ تعريفه اصطلاحاً:

«إذا كانت الغربة تعني الشقاء والضياع والألم، فإن الحنين "Nostalgie" بكل طاقاته يعني حياة السرور والبهجة والفرح، لأنّه يجسّد لحظة أمل يعيشها الشاعر أو الإنسان في ساعة من ليل أو نهار، وإذا كانت الغربة تعني البعد والنوى فإنّ الحنين يعني القرب والعودة، تفصل بينهما لحظة زمنية معينة يسبقها الشعور الطاغى بالحنين إلى الوطن»⁽¹⁹⁾، وكما سبقت الإشارة فإن معنى الحنين هو الرحمة وهي مشتقة منها، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [سورة مريم، الآية 13]، وهكذا يكون الحنين غريزة عميقة في نفوس البشر، وعاطفة سامية أودعها الله في الإنسان منذ الأزل، فأينما وجدت غريباً قابلك حينه، «فن علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تواقّة».⁽²⁰⁾

وهذه الغريزة ليست قصراً على الإنسان كما أسلفنا وإنما نتعداه إلى الحيوان، فحنين الإبل مثلاً هو نزوعها إلى أوطانها وأولادها، والكلاب كما هو معلوم أشد الحيوانات حنيناً ووفاءً.

ج/ أنواع الحنين:

تعددت أنواع الحنين وتنوّعت لاسيما في العصر الحديث، فنجد الحنين إلى الوطن وهو أكثرهم شيوعاً، بحيث كثر الشعراء الذين ينظمون قصائدهم في هذا الضرب، كما نجد الحنين إلى المحبوبة أو الزوجة، والحنين إلى الأسرة من أم وأب وأخت وأخ وأولاد وأحفاد، دون أن ننسى حنين الشعراء إلى مراحل طفولتهم وكذا شبابه وماضيهم، ومن ألوان الحنين كذلك الذي كان له صدى كبير في أشعار هؤلاء المغتربين حنينهم إلى الطبيعة التي تركوها مجبرين مكرهين لا مخيرين، حيث كانوا يتذكرونها في ديار الغربة كلّما وقعت أبصارهم على منظر أو مشهد مماثل لطبيعتهم، ومن هذه الأنواع نذكر:

1- الحنين إلى الوطن:

إنّ حبّ الوطن يجري في النفس مجرى الدم في العروق، فقد هاجر هؤلاء العرب أوطانهم الأصلية إلى عالم آخر يفيض غنى وحرية، فكان الحنين إلى أوطانهم يزداد يوماً بعد يوم، فيذكرون ماضيهم وأرض أجدادهم ويتلهفون إلى رؤيتها، ويتغنّون في أدبهم بحاسنها، فكان هذا اللون من شعرهم أقواه وأجوده، فهذا الشاعر "نسيب عريضة" حرقه الحنين تلهب أحشائه ونثر في نفسه الذكريات فيندفع متمنيا العودة إلى "حمص" ولو حشو كفن، ولعلّ خير دليل على حبّ الوطن والولاء له قول "أمين الريحاني": «أنا جنسي على لساني، وفي وجهي وطني أضلعي، أنا عربي رمل البادية عزيز عندي كدم أبنائها، وسيئات العرب أبجل في نظري من حسنات عبدة التمدّن، أنا عربي ماضي بلادي حيّ في قوّادي، ومستقبلها نور من أنوار إيماني».⁽²¹⁾

وفي قصيدة "لبنان" يبلغ الشاعر "إيليا أبو ماضي" قمة حنينه إلى الوطن، حيث ينشد فيها مآثر وطنه ويبيّنه وجده وحنينه، وقد وقعت على إيقاع الوجدان والبوح والمناجاة، يقول:⁽²²⁾

اثنان أعيا الدهر أن يلبهما لبنان والأمل الذي لذويه
نشاقه والصيف فوق هضابه ونجبه والثلج في واديه

نستنتج من كل هذا أنّ الوطن هو المكان الأوّل الذي تمتد جذوره في ذات الإنسان، حيث يكبر الارتباط الحميمي بالمكان بقدر ما تتضاعف المعرفة وتعمّق المعاناة، وتزداد كلّما تعرّض هذا المكان إلى الفقد والضياع.

2 - الحنين إلى المحبوبة:

كانت الحبيبة إحدى الرموز التي انطوى تحتها أسى الحنين إلى الوطن، فكثيرا ما نحسّ بأنّ الشاعر وهو يحنّ إلى حبيبته التي خلفها وراءه في أرض الوطن، إنّما يحنّ في الحقيقة إلى وطنه كلّ وإلى ذكريات صباه ومراتع لهوه، «فذكر المعشوقة هنا تتراءى في حنين الشاعر وتجربته، فنجده يحسّ بفقدائها وتنعكس في أشعاره ذكرياته معها، وكثيرا ما كان الشاعر المغترب يضيف على محبوبته صفات السارق الذي سلب قلبه وعقله، فأصبح يكابد الشوق والحنين حتى لم يبق ذلك الحبّ ما يطيق فراقه، ويتحمّل أشجانها ولواعجه»⁽²³⁾.

فها هو شاعر الحميم والنّعيم "إلياس أبو شبكة" من خلال قصيدته الموسومة بـ: "لغز الحب" يحنّ إلى محبوبته التي تركها في لبنان، ولهذا الحبّ الذي يكنّه لمحبوبته "دليلة" لغزه وسحره، يفوق العقل فهمهما، فيكتفي الشاعر من أمره بأن يعانيه ويقتنع به، يقتصر منه على وجوده، يقول: ⁽²⁴⁾

أحبك لا أدري لماذا أحبها كفاني إيماني بأنّي أشعرُ
وأهوى الذي تهوين حتى كأنني بقلبك استهدي وعينيك أنظر

3 - الحنين إلى الأسرة:

لقد افتقد هؤلاء الشعراء في المهجر دفء الحياة الاجتماعية والتّام الشمل العائلي، فما منهم إلا وترك أحد أصوله أو فروعه عندما هاجر، «والحنين إلى الأسرة لم يكن عند جميع شعراء المهجر، فالإحساس بالأسرة نجده مشبوبا عند شعراء المهجر الجنوبي، بينما نجده متواريا عند بعض شعراء المهجر الشمالي، ومفقودا عند آخرين»⁽²⁵⁾، وهنا تجدر بنا الإشارة إلى أنّه لا وجود لذكر الأخت أو الأخ في أشعار هؤلاء، وإن كانت فهي نادرة جدا أو ضائعة، ولعلّها سمة في ذكريات هؤلاء المغتربين أنّهم جعلوا "الأخت" عنصرا هاما من عناصر الذكرى والشوق إلى أيام الصبا والطفولة، فقد حاولوا الارتداد إلى الماضي بالصورة المشرقة الزاهية التي تقف في وجه حاضر الغربة العابس، أمّا الأدب فلقد كان حاضرا في أشعار هؤلاء المغتربين عن ديارهم، لكن ليس في باب الحنين بقدر ما هو حافل في باب الفخر والرياء خاصة.

أ/ الحنين إلى الأم:

لقد أكثر الشعراء المهجريين في أشعارهم "الحنين إلى الأم"، حيث كانوا يشكون إليها آلامهم الذاتية ويثّنون إليها أحزانهم، وعليه فقد شغلت الأم على وجه التحديد القدر الأكبر من إبداعاتهم، ومن ألمع ما قيل في هذا الجانب تلك القصيدة التي يصوّر فيها الشاعر "إلياس فرحات" حنين الأم إلى رؤية أبنائها الذين نزحوا عبر البحار، يصوّر حنينهم - أيضا- إلى رؤيتها في قوله: ⁽²⁶⁾

أَنفَقْتُ عَمْرِكَ تَرْقِبِينَ رَجوعَنَا وَتَجُوسِ كُلِّ سَفِينَةٍ عَيْنَاكَ
 وَتَحْمِلِينَ الرِّيحَ كُلَّ رِسَالَةٍ خَرَسَاءَ لَقْنَهَا فِؤَادَكَ فَأَكْ
 أَشْقَى النِّسَاءِ عَلَى الثَّرَى أُمُّ قَضَتْ أَيَّامَهَا فِي وَحْدَةِ النَّسَاكَ
 أَبْنَاؤُهَا مَلَأُوا الْبُيُوتَ وَبَيْنَهَا خَالَ مِنْ الْحَدَاثِ وَالضُّحَاكَ
 سَحَرُوا بِمَزْعُومِ الْعَنَى فَتَحَوَّلُوا صُورًا عَلَى الْجُدْرَانِ دُونَ حَرَكَ

والشاعر في البيت الأخير يخاطب والديه بعد وفاتهما، وذلك حينما أصبحا جامدين (صورا جامدة معلقة على الجدران). ويقول أيضا في شكوى الاغتراب عن الوالدين (الأم والأب) والحنين إليهما: (27)

تَحْمَلْتُ وَحْدِي مَذْ تَرَامَتْ بِي النَّوَى مَصَائِبُ بُوْدِي بَعْضَهَا بِطَرِيقِ
 فَفَارَقْتُ عَشَّ الْوَالِدِينَ وَلَيْسَ لِي سِوَى زَغَبٍ فَوْقَ الْجَنَاحِ رَقِيقِ

ب/ الحنين إلى الزوجة أو الخطيبة:

كانت "الزوجة" مهبج الأمان للشاعر المهجري، تحسّ بأنها سناء حياته، ومبعث أمنه، ومشجعته على تمجيد النضال المرير في سبيل الحياة، ورعاية أحلامه وإلهامه، وقد كانت تحظى بكل احترام وتصدر موائد السمر وتذكي قرائح الشعراء، وفيها يقول "إلياس فرحات": (28)

أَنْتِ الْحَيَاةُ فَأَنْتِ فِي رِئْتِي الْهَوَا وَالتَّوْرُ فِي عَيْنِي وَفِي قَلْبِي الدَّمُ
 أَنْتِ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاءُ كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَى هَذَا الْوُجُودِ مَخِيْمُ

ج/ الحنين إلى الأبناء:

أمّا الشعراء الذين كَوَّنُوا أَسْرَاءَ، وَأَنْجَبُوا بَنِينَ وَحَفْدَةً فَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي الْمَهْجَرِ، وَمَا أَكْثَرَ الشَّعْرَ الَّذِي أَنْشَدُوهُ وَهُوَ - كَكُلِّ - يُمَثِّلُ تَجْدِيدًا فِي مَوْضُوعٍ شَعْرِيٍّ جَمِيلٍ لَيْسَ فِي تَرَاثُنَا مِنْهُ إِلَّا أَقْلٌ الْقَلِيلُ. يستقبل الشاعر "إلياس فرحات" ميلاد ابنته "ليلي" بقصيدة حلوة الموسيقى، عذبة الإيقاع، رقيقة الكلمات، تتوالت فرحته باستقبالها - وهو في أرض المهجر - بين السطور: (29)

أَوَّلَى فَرَاخِ الْبَلْبَلِ الْغُرْدِ
 هَذَا جَنَاحُ أَبِيكَ فَاعْتَمِدِي
 الْعَشَّ بَيْنَ الْغَارِ وَالْآسِ
 فِي مَأْمَنٍ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ

.....

مَا أَنْتِ مِنْ هَذَا التُّرَابِ، وَلَا
 تِلْكَ الْمِيَاهِ، وَذَلِكَ الْجِلْدُ
 بَلْ أَنْتِ رُوحِي وَمِنْ جَسَدِي
 د/ الحنين إلى الحفيدات:

يقول "إلياس فرحات" في قصيدته "حفيداتي" وهي قصيدة موجهة إلى حفيداته، تغدو الشيخوخة حقيقة مرّة عند مغادرة البنات الصغار، يقول في بعض أبياتها: (30)

حفيداتي، حبيباتي فراش الروض والزهر
فضاق البيت بي وحدي وضاق الخلق والصدر
فشيب الجدّ أزهار لها من عطفه عطر

4- الحنين إلى أيام الطفولة والصبا:

إنّه زمن النشأة والصبا يكيهما الشاعر في غربته، فإذا كان المرء في أرضه وبين أهله يحنّ إلى ذكرياته وطفولته، فما بالك بالذي يتغربّ عن أرضه ويغادر مسقط رأسه مكرّها. يقول "إلياس فرحات" في حنينه إلى أيام طفولته: (31)

طفولتي لله ما أحلاها تجدد الآمال بي ذكرها
وترجع النفس إلى صباها
أيام لا أهتم لهمم ولا أبالي بالأذى الملم
ما دمت بين والدي وأمي

5 - الحنين إلى الطبيعة:

من المعلوم أنّ الحنين إلى الوطن يستدعي الحنين إلى الطبيعة، فلم يكن حديث الطبيعة عند الشاعر المهجري سوى هروب نفسي من عالم المادة الغربي؛ عالم الآلة التي تسيطر على الفرد وتذيبه في المجموع، حيث الضجيج يثقل على الآذان ويكاد يصمّمها، وحيث الصراع بين قوى الخير وقوى الشر في النفوس، هذا المجموع المزدهم الخائف والضائع في زحمة العمل، وحيث الحياة لا تعرف الرحمة ولا تنظر إلى الضعيف، وحيث شؤون الحياة تثقل على الفرد، ولا سيما إذا كان هذا الفرد من الشرق، لا يألف هذا النمط من الحياة والوجود، ولهذا فقد اشتاق الشاعر المهجري إلى الطبيعة، تلك التي تحقق له السكينة والوقار، فلها ملّت نفسه ضجيج المدينة وال عمران في أرض المهجر تاقت إلى هدوء الطبيعة التي تخلو من الهموم والأحزان... يقول "جبران خليل جبران": (32)

ليس في الغابات حزن لا، ولا فيها الهموم
فإذا هبّ نسيم لم تجئ معه السموم

6- الحنين إلى الماضي:

لقد حنّ الكثير من الشعراء المهجريين إلى ذلك الماضي الذي يرون فيه كل السعادة والحبّ، وكثيرا ما تذرف أعينهم حين تذكره، وخاصة إذا كان ماضيهم يملأه الفرح والبهجة، ولعلّ سرّ هذا الحنين هو طغيان طابع التشاؤم واليأس والحيرة والقلق على هؤلاء الشعراء، والخوف من المستقبل وما يحبّؤه لهم من أسرار،

وبالتالي يحنّون إلى ماضيهم السعيد لنسيان همومهم وأحزانهم، يقول الشاعر "إيليا أبو ماضي" في قصيدته "حنّة مشتاق":⁽³³⁾

ألا حبذا من سالف العيش ما مضى ويا حبذا لو كان يرجع ثانياً
زمان كقلب الطفل صاف وكالمنى لذيد، ولكن كان كالحلم فانيا
أحنّ إليه في العشي وفي الضحى حنين غريب جاءه الشوق داعيا
وأذكره ذكرى العجوز شبابها وأبكي لدى ذكره أحمر فانيا

وفي حنينه إلى الشباب نجده يدعو إلى استغلال هذه المرحلة، من أجل إشباع الرغبات جميعها لأن مرحلة الشيخوخة قاتلة لها، يقول:⁽³⁴⁾

بكيت الصبا من قبل أن يذهب الصبا فيا ليت شعري ماذا تقول إذا تولى؟
إلى أن يقول:

سبيلي الصبا مهما حرصت على الصبا فدعه يذوق الحب من قبل أن يبلى
فالشاعر إذن يحنّ إلى أيام ماضيه؛ تلك الأيام المليئة بالسعادة والأحلام والفرحة، أيام بريئة كبراءة الطفل الصغير، حيث كان يحنّ إليها حنين الغريب المشتاق، كل يوم بل كل صباح ومساءً، وكان يبكي على ذكرها.

3 - لمحة موجزة حول الشاعر "رشيد أيوب":

"رشيد أيوب" هو شاعر لبناني مهجري عُرف «بالشاعر الدرويش» وأطلق عليه لقب "الباكي الشاكي"، ولد في سنة 1871م، وتلقّى فيها دروسه الابتدائية، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد رحلة قام بها إلى باريس ومانشستر، وفي سنة 1905م انتقل إلى نيويورك واشترك مع زملائه في تأسيس الرابطة القلمية، وفي تغذية بعض الصحف والمجلات بالمقالات النثرية والقصائد الشعرية، وتوفي سنة 1941م ودفنت معه أخلاقه الطيبة وخفة روحه ولطف فكاهته.⁽³⁵⁾

"لرشيد أيوب" ثلاثة دواوين شعرية: "الأيوبيات" (1917م)، "أغاني الدرويش" (1928م) و"هي الدنيا" (1939م)، كان في ديوانه الأوّل شاعر الحرية ينشدها لنفسه وخصوصاً لوطنه الذي فتكت به ويلات الحرب العالمية الأولى، وقاس من استبداد الأتراك وظلمهم ما لم يقاسيه في يوم من أيام تاريخه الطويل، وكان ديوانه الثاني والثالث الذي لا يرى في المجتمع إلا بنفسه وشجونها وأشواقها، ولا يطلب من الدنيا أن تمنحه إلا خيمة التطور، ليعيش فيها قانعا بفقره وعزلته، كان "رشيد أيوب" شديد التأني في نظم الشعر كثير الحرص على جمال الإيقاع، وقد جاء شعره حافلا بالبساطة والطلاوة والركة والموسيقى.⁽³⁶⁾

ومن الشعراء المهجريين الذين تركوا بصمتهم الشعرية في شاعرنا هذا هو "جبران خليل جبران"، و«قبل أن يتأثر بالحمى الجبرانية أفلت من قريحته الشعرية" الأيوبيات" ولكن أعماله التالية أبرزت خصائصه الرومانسية بوضوح».⁽³⁷⁾

وكما سبقت الإشارة فإن "رشيد أيوب" كان كثير الشكوى في شعره، هذا وإن كان في شكواه مرارة الفشل ففيه كذلك حلاوة الأمل، وإن تكن في دمعته حرقاة الأسى ففيها كذلك برودة التأسي، وبهذا المعنى تصبح شكاة رشيد إدراكا لسر الحياة لا مناحة على الحياة.

وإنّ المتصفح لشعر "رشيد أيوب" يجد أنّ عصارة ما كتبه تتلخص في ثلاث كلمات "حب وألم ونحمر"، فهو كثير التشبيب والشكوى والنواح، كثير الحنين إلى عهد الشباب والحب، كثير الألم والحيرة والانطواء، وقد كانت الخمرة ملاذه الوحيد للنسيان، حيث كان يلجأ إليها للنسيان واقعه والارتقاء في أحضان الطفولة، كما كان كثير الأحلام فهي الوسيلة الوحيدة التي تعيده لشبابه المذهب.

والصور الرومانسية حاضرة بكل قوة في شعره؛ فصورة الليل والنجوم ستغرق العزلة والحيرة والضياع والهروب والمناجاة والاستذكار والحنين، والليل يجمع كل هذه الأمور في ذاته، وبين الشاعر والليل حب قوي يلحّ عليه سائلا أن لا ينجلي، لأنّ ظلامه رشد ونور، والنجمة فيه راية الشعر، وهكذا فإنّ الوطن عنده يظلّ واحة يفرّ إليها من عالم مثقل بالهموم، وهذا العالم هو الذي يربطه بذكريات طفولته وأسرته التي أبعد عنها فراقه لوطنه، فهو حين يرى الثلج في ديار الغربة تتمثل طفولته في بيت أهله القابع على الجبل ترعاه أمّه في ليلة بيضاء مثليّة.

ثانيا: تجلّيات الغربة والحنين في قصيدة "حنين" لرشيد أيوب:

1 - نصّ القصيدة: (38)

اعتزل أخبار سلمى يا سمير ودّع الذكر لليلي وسعاد
واشدّ لي باسم التي أين العبير من شذا أنفاسها في كلّ ناد
في حمى الفيحاء حلّت مثلها في ربي لبنان باتت تسطع
وزهرت بيروت في الدنيا كما ضارت الشهباء منها تلمع
فهي أخت العدل تدعى حيثما رتعت يوما ونعم المرتع
هبة من خالق الكون القدير قد حباها للورى حتى المعاد
قال منها يرتجى الخير الكثير فارتعوا في ظل هذي يا عباد
قد دعاها للهوى مضنى الجوى ظلّ يشكو الدهر أنواع الخطوب
قال عيشي في سواها قد ذوى وزماني إن صفا فهو كذوب
وفؤادي إن يكن فيها اكتوى فلكم في حبّها ذابت قلوب
فزفيري ليس إلّا من سعي جمرة ما بين جنبي والفؤاد
فإذا كان دمعي كالغدير ليس يطفئ نار بركان الوداد
آه وشوقي لأيام الصبا فلايام الصبا ما من رجوع
ليت شعري وعلى تلك الرّبي يا ترى حتى متى أذري الدموع

ورعاك الله يا ربح الصبا سحرا إن جزت هاتيك الربوع
 فاحلمي منه شذا قلب كسير بات يشكو هائما في كل واد
 ذاك قلبي وأنا طفل صغير ضاع مني بين هاتيك الوهاد
 عجبا في الغرب أحيا مغرما وفؤادي في ربوع المشرف
 ولدى التذكار دمعي إن هما ليس يضيفي لوعة من حرق
 ذابت الروح وشوقي قد نما ولعمري غير وجدي ما بقي
 فحنين وأنين وزفير ذاك دأبي منذ ودّعت البلاد
 كدت من شوقي للبنان أطيّر حبذا لو تم لي نيل المراد

2 - مقارنة تأويلية لنص القصيدة:

أ/ قراءة في العنوان:

للبنية الاستهلاكية مكانتها في النصّ، فعلى عاتقها تقع مهمة إدخال القارئ في دائرة مجرى الحدث، وعليها أيضا تقع مهمة تسليح القارئ بأدوات وصور تسهل عليه عملية الولوج إلى باطن النصّ لكشف خباياه، فالعنوان ما هو إلا تقليص لبنية النصّ في دلالتها؛ نصّ مضغوط تضغط كلماته معاني النصّ، فهو العتبة الأولى التي نقف عندها لاستجلاء غموضه، فكلّ كلمة في العنوان لها دلالة أحادية، وأخرى تركيبية تلعب اللغة في ذلك دورا أساسيا.

ونحن نقرأ قصيدة "حنين" للشاعر "رشيد أيوب" أول ما يلتفت انتباهنا، هذا العنوان المثير في شكله ومضمونه؛ إذ جاء كلمة مفردة اسمية دالة على الثبات والهدوء والرتابة.

وهذا العنوان على الرغم من أنّه كلمة واحدة، إلّا أنّه يحمل دلالات متعددة، وينفتح على إichاءات كثيرة، كلّها مرتبطة بالحالة السيكولوجية للذات المبدعة، فكلمة "حنين" - من وجهة نظرنا- يمكن تفسيرها من عدة زوايا، وهذا ما يثير في أنفسنا تساؤلات عدة من قبيل: حنين لمن؟ أهو حنين إلى وطنه ومسقط رأسه؟ أم هو حنين إلى الأهل والأحباب والخلان؟ أم هو حنين إلى مراحل الطفولة البريئة والشباب الزاهر؟ أم هو توق واشتياق نحو من أحبّ قلبه وذاب في حبه؟ أم هو ماذا؟

ولو نظرنا في كلمة "حنين" بشيء من التأمل لوجدنا فيها نوعا من التفاؤل؛ تفاؤل في العودة على الأقل إلى الوطن والتقاء الأهل والأصحاب، باعتبار العودة إلى مراحل الصبا والشباب ضربا من المستحيل.

كذلك نلمس من خلال العنوان "حنين" المعاناة الكبيرة التي يعيشها الشاعر بسبب الوحدة والاعتراب عن وطنه وأهله، وهنا تظهر مفارقة كبيرة بين الوضع الذي هو عليه (الاعتراب واللاعودة)، والوضع الذي سوف يمكن أن يكون عليه (الرجوع والعودة) باعتبار - كما سبقت الإشارة - أن كلمة "حنين" تحمل في طياتها تفاؤلا في الارتداد والعودة إلى الوطن.

إذن فالحنين هو تعبير بشكل أو بآخر عن الوفاء بأجمل صوره وتعايره، فله ذاكرة تحتفظ بكل اللحظات التي مرّت سريعة بصورة جميلة، لا يعكّر صفوها كدر الغياب أو الغدر، وللحنين يد خفية تربّت علينا بهدوء وعطف وتتركنا نبارك الماضي.

ب/ تحليل القصيدة:

إنّ الإنسان بطبيعته موصول الوشائج بالأرض التي نبت عليها، وبالمجتمع الذي نما فيه؛ وشائج تضرب بجذورها في أعماق نفسه، ولذلك فلا غرابة أن نجد محبة الوطن أغنية فطرية على كل لسان؛ هذه الأغنية التي ارتبطت كثيرا بالمقدمات الطللية التي كان الشعراء القدامى يستهلون بها قصائدهم؛ أطلال ديار الشاعر، أو ديار حبيبته التي عرفها بين أفيائها، ودارت ذكريات الحبّ والنجوى في رحابها، لذلك نجد كثيرا من قصائد الشعراء القدامى عموما والجاهلين خصوصا يفتتحون أشعارهم بمقدمات غزلية- فضلا عن المقدمة الطللية- متغزلين فيها بمحوباتهم.

ولو عدنا إلى قصيدة "حنين" لوجدنا أنّ "رشيد أيوب" في أوّل مقطع يدعو وبصراحة مباشرة إلى مخالفة القدامى، واجتناب تقليديهم ومحاكاتهم في استفتاح القصائد بالمقدمة الغزلية، ويظهر ذلك جليا من خلال فعل الأمر (اعتزل) و (ودّع) والذي يدل في اللغة على فعل الوجوب والإلزام، يقول:

اعتزل أخبار سلمى يا سمير **❦** ودّع الذكر لليلي وسعاد

فقد كانت للمرأة مكانة راقية في شعر هؤلاء، حيث تغنى "امرئ القيس" وغيره بسلمى، يقول في معلقته مبرزاً فيها جمالها ومفاتها:

ليالي سلمى إذ تريك منصبا **❦** وجيد بكيد الرّمّ ليس بمعطال ⁽³⁹⁾

وفي قصيدة "رسالة ليلي" يتغزل الشاعر الأموي "عمر بن أبي ربيعة" بليلا فيقول:

لقد أرسلت في السرّ ليلي بأن أقم **❦** ولا تتأنا، إنّ التجنّب أمثل ⁽⁴⁰⁾

وفي "سعاد" يقول الشاعر "النابعة الذبياني" في قصيدته "الرسم":

ذكرت سعاد فارتعتني صبا **❦** وتحتي مثل الفحل وجناء ذعلب ⁽⁴¹⁾

جاءت القصيدة تحت عنوان "حنين"، وفي المقطع الثاني والثالث منها نجد "رشيد أيوب" يبلغ فيهما أشدّ درجة شوقه لوطنه الذي تركه وابتعد عنه، فقد أثقلت الغربة كاهله، حيث تحملّ مذخروجه من وطنه مسؤولية أن يشقّ لنفسه وجودا كاملا، وأن يثبت وجوده الذاتي في هذا الكون.

وإذا عدنا إلى المقطع الثاني تحديدا فإننا نجد الشاعر قد أقام مقارنة بين بلده "لبنان" والبلد الشقيق "سوريا"، ويتجلّى ذلك من خلال اسم "الفيحاء" وهو إحالة إلى عاصمة سوريا (دمشق)، حيث سميت كذلك لأنّها تفوح بعطر الياسمين، ثمّ قابلها ببجبال لبنان العالية الشاخنة العامرة بالورود والأزهار، والتي يسجّ عليها بياض الثلج، ثم يصل الشاعر في البيت الموالي إلى نقطة لقاء بين "سوريا" و"لبنان" والمتمثلة في "البياض"، فأحدى اشتقاقات كلمة "لبنان" هو "لبن" وسمي كذلك لأنّ لونه أبيض ومنه سميت "لبنان"، كذلك لبياض

ثلجها، فبياض الثلج يجعل بيروت زاهية على شاكلة "الشهباء" وهي مدينة "حلب السورية"، وإنما سميت كذلك لبياض حجارتها، ويقال بأنّ جبال الشهباء هي الجبال المغطاة بالثلوج، الذي يلعب من بعيد حينما يكون معاكسا للشمس الساطعة:

وزعت بيروت في الدنيا كما ضارت الشهباء منها تلعب

ونجد الشاعر "رشيد أيوب" في الأبيات الموالية من شدة شوقه وحنينه لبلده، يكثر الحديث عنه دون أدنى ملل أو كلل، فأسى الغربة وشقاءه كان واضحا عليه، إذ كان كثير الشكوى، وغالبا ما كان يكتّم همومه ومشاغله دون أن يشارك أحدا في ذلك، فالحرقة وشدة الوجد جرّاء حزنه من فراق وطنه والتعاسة التي كانت مصاحبة له منذ أن ترك "لبنان"، كانت واحدة من الأسباب التي جعلت الشاعر يكثر من شكواه. إذن فشكوى الشاعر نابعا من اليأس والشعور بالأجْدوى المترسب في قاع نفسيته، ولهذا نجده ينفث شكواه كزفرة همّ في مسمع الفضاء السّاهي، إنّها زفرة بلا صدى لأنّ الفضاء خال. فالاغتراب يزيد من إحساس الشاعر بالضيق ويضاعف الهوة بينه وبين أهله، إذ هو بحاجة ماسة إلى من يعي أعماق حالته الخاصة.

ومن حنينه إلى وطنه نجده يلتفت التفاتة سريعة إلى أيام ماضيه؛ إلى مراحل طفولته، إلى أيام صباه عندما كان طفلا صغيرا، لا يهّمه ما هو مهم ولا يبالي بالأذى الملم، ونجده يتأسف لضيق هذه الأيام؛ أيام ما من شأنها أن تعود، إنّها شريط زاهٍ يمرّ أمامه يحمل ذكريات عذبة، فكم ذا تحبّي كلمة "آه" من حسرة وتأسّي، وكم تحبّي من حنين لهدف لتلك الفترة:

آه واشوقي لأيام الصّبا فلا أيام الصّبا ما من رجوع

ورعاك الله يا ريح الصّبا سحرا إن جزت هاتيك الربوع

وفي هذا البيت الثاني إنّما استعمل الشاعر لفظة "الريح" دون غيرها من الألفاظ يعود لكونها «علامة للرحيل المشوب بالتعاسة واليأس والإحباط، فهي إذاً نظيرة للتيه والضيق، وصورة أخرى للغياب والتماهي داخل العالم المجهول»⁽⁴²⁾، وهذا يعني أنّ مرحلة الطفولة والصّبا بالنسبة للشاعر قد صارت من الماضي وليس هناك من أمل لرجوعها، وكأنّ صباه ضاع منه حينما اغترب عن موطنه، لأنّ البعد عن الوطن يعني البعد عن كل ما يربطه به من أوصل ووشائج؛ من تراب وأرض، ومن ماضٍ ومن حبيبة، ومن أهلٍ وأحبابٍ وحتى من مراحل شبابه وصباه يقول:

ذاك قلبي وأنا طفل صغير ضاع منّي بين هاتيك الوهاد

ولوعدنا إلى البيت الذي سبق هذا البيت لوجدنا أن الشاعر فيه قد تناصّ مع القرآن الكريم، وذلك من خلال قوله، حينما ضاع عن صباه "هائما في كل واد" وهو تناصّ مع سورة الشعراء، عند قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۚ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهْمُونَ ۚ﴾ [سورة الشعراء، الآية 224، 225].

والبعد عن الوطن لا يعني إطلاقاً قطع الصلة به أو الامتناع عن التفكير فيه، بل على العكس تماماً من ذلك، وهذا ما يتجلى في آخر مقطع من قصيدة "حنين":

عجبا في الغرب أحيا مغرما وفؤادي في ربوع المشرق

ولدى التذكار دمعي إن هما ليس يضيئي لوعة من حرق

غير أن تذكر الوطن والبكاء على فراقه لم يشف غليل الشاعر ولم ينسه إياه، بل إن ذلك يزيد من شوقه ووجده له؛ ذلك الوجد الذي يطفئ البصر ويصمّ السمع ويفتح كوى النفس، ترى بالرؤيا وتسمع نغما بلا لحن؛ عالم داخلي مشوب بالحنين والشوق:

ذابت الروح وشوقي قد نما ولعمري غير وجدي ما بقي

لحنين وأنين وزفير ذاك دأبي منذ ودّعت البلاد

وفي هذا البيت الأخير تصريح مباشر من "الذات الشاعرة" لشدة الشوق والحنين إلى لبنان، وأن شوقه إليها كان منذ أن وطئت قدماه أرض المهجر.

وقد ختم "رشيد أيوب" قصيدته هذه "بتني" تمثل في لو أنه يأتي يوما عليه ويتحقق مراده، وهو عودته إلى أرض وطنه "لبنان"، فلم يجد الشاعر إلا أن يحلم في العودة إلى وطنه ويجتمع مع أهله، فهو الوسيلة الوحيدة للتفريغ نفسيا لرغبة في حالة الكبت، ثم إن الشيء الذي جعله يلجأ إلى الحلم هو عدم تحقق ما يطمح لنيه في الواقع، «فالحلم تعبير عن رغبة لم تشبع في عالم الواقع، ولم تجد تلبية لها في عالم الأشياء المحسوسة، فانصرفت عنه إلى عالم الوهم والخيال».⁽⁴³⁾ ففي الغربة وحدة قاسية ووحشة موحجة تجعل المغترب دائم التفكير بوطن سحري لا يعرفه، وتملاً أحلامه أرض قصة ما رأتها عينه:

كدت من شوقي للبنان أطير حبذا لو تم لي نيل المراد.

ونجد لبنية الاستهلال "حنين" تداخلا كبيرا مع البيت الأخير في هذه القصيدة والذي يدور معناه حول حنين "الذات المبدعة" لوطنها وشوقها الكبير للعودة إليه، وافتقادها لمرحلة صباها البريئة.

خاتمة:

نخلص في نهاية هذا المقال إلى استخلاص جملة من النتائج، يمكن رصد أبرزها في النقاط التالية:

* إن ظاهرة الغربة والحنين ظاهرة سجلت حضورا قويا في الأدب العربي، حيث صورت آلام وآمال هؤلاء الذين اضطروا إلى ترك أوطانهم وأهليهم، وتجرعوا هموم الغربة ومحنة الشعور بالشوق والوحدة وعالم الصمت الحزين، فقد كان الشاعر والأديب حاضرين في هذه الغربة بجميع تناقضاتها، وحملت أعمال هؤلاء الأدباء صور المعاناة والأسى الذي تذوقوه جرّاء غربتهم، فعلى الرغم من أن العالم الغربي المادي بمغرياته كان يوحى بجو مثالي للعيش، لكن أدباء المهجر لم يكونوا لينغمسوا في هذا الجو، وينسلخوا عن جذورهم الشرقية العربية، لقد ظلّوا أوفياء و متمسكين بأصولهم العربية وذلك واضح من خلال حنينهم الدائم ومقاساتهم للغربة بصمت.

* إن توظيف "رشيد أيوب" للاغتراب والحنين في شعره، إنما هو تعبير عن التعاسة والفراغ الرهيب التي تعاني منه ذاته، وهو نموذجاً حقيقياً مثل هذه القضية (الاغتراب) أحسن تمثيل، حيث عبرت صرخاته بمصدقية عن الضياع بحثاً عن السكينة، وكما هو معلوم أنّ الأحران عندما تسكن قلوب البعيدين عن أوطانهم، فإنهم يخلقون لأنفسهم عالماً يهربون إليه، يبحثون فيه عن أنفسهم الضائعة في ركاب من العبث المجنون، ولطالما كانت الطبيعة بتجلياتها الجميلة النائمة في الوداعة، أكثر الأماكن استقطاباً لهذه الفئة، و"رشيد أيوب" كان واحداً من هؤلاء الذين اتخذوا من الطبيعة دواءً لدائه، فقد كانت مستراحاً لنفسه الشاردة، يطلق بين يديها شجوه الدائم، فالليل حيث يهدأ الكون ولا تبقى غير النجوم، هو الملجأ الذي يجد فيه الشاعر المجال لإطلاق أغاريد، واستعادة ماضيه بالوطن والحبيبة وأيام طفولته وشبابه.

* إن أجمل ما في "رشيد أيوب" هو أنّه أدرك حقيقة نفسه كدرويش هائم، حظّه من الحياة أن يغني لوطنه البعيد وأيامه الماضية وحبّه المنصرم وآماله الضائعة، ولأجل ذلك فقد كان له فضل كبير على الشعراء، للدعوة الشديدة على ضرورة الحرص على أن يكون الشعر متصلاً بجوهر النفس الإنسانية، ومعبراً عن تجارب الشاعر في صدق وبساطة وإخلاص.

الهوامش والإحالات:

- 1- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي الأنصاري المصري، لسان العرب، ج11، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005م، ط4، مادة "غَرَبَ".
- 2- عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945-1962)، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، 1997م، دط، ص17.
- 3- يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1428هـ/2008م، ط1، ص16.
- 4- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، الحيوان، ج3، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1385هـ/1965م، ط2، ص431.
- 5- المرجع نفسه، ص ن.
- 6- يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، ص18.
- 7- ينظر: محمد مشعالة، الاغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة، أطروحة دكتوراه العلوم في الأدب العربي القديم، إشراف: عبد القادر داخلي، جامعة الحاج لخضر، باتنة (الجزائر)، 2009/2010، ص64.
- 8- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، ج2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1414هـ/1994م، ط1، ص229.
- 9- يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، ص19.
- 10- ميخائيل نعيمة، همس الجفون، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2004م، ط6، ص11.
- 11- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، لبنان، 2004م، دط، ص123.

- 12- يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، ص 20.
- 13- إقبال محمد رشيد صالح الحمداني، الاغتراب - التمرد- قلق المستقبل، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1432هـ/2011م، ط1، ص 133.
- 14- جبران خليل جبران، البدائع والطرائف، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، دس، دط، ص 147.
- 15- يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)، ص 20.
- 16- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 148.
- 17- أحمد بسام ساعي، حركة الشعر العربي الحديث من خلال أعلامه في سورية، دار الفكر، دمشق، 1427هـ/2006م، ط1، ص 469.
- 18- ابن منظور، لسان العرب، ج4، مادة "حَنَنَ".
- 19- عمر بوقرورة، الغربية والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945، 1962)، ص 18.
- 20- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، الحنين إلى الأوطان، دار رائد العربي، بيروت، لبنان، 1402هـ/1982م، ط2، ص 8.
- 21- أمين الريحاني، الريحانيات، ج3، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت، لبنان، 1923م، ط1، ص 82.
- 22- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 641.
- 23- محمد أحمد دقالي، الحنين في الشعر الأندلسي (القرن السابع هجري)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2008م، ط1، ص 294.
- 24- إلياس أبو شبكة، ديوان إلى الأبد، دار المكشوف، بيروت، لبنان، 1944م، دط، ص 74.
- 25- أنس داوود، التجديد في شعر المهجر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دس، دط، ص ص 305-306.
- 26- إلياس فرحات، ديوان الصيف، مطبعة صفدي التجارية، سان باولو، البرازيل، 1954م، ط2، ص ص 138-139.
- 27- المرجع نفسه، ص 156.
- 28- إلياس فرحات، ديوان الخريف، ص 71.
- 29- إلياس فرحات، ديوان الربيع، ص 181.
- 30- إلياس فرحات، ديوان الخريف، ص ص 175-176.
- 31- إلياس فرحات، ديوان الربيع، ص 82.
- 32- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة نصوص خارج المجموعة، ص 34.
- 33- إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 657.
- 34- إيليا أبو ماضي، الخمائل، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1940م، دط، ص ص 152-153.
- 35- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1986م، ط1، ص 619.

- 36- ينظر: شعبان عبد الحكيم محمد، حركة الشعر العربي في المهجر ملامحها وأشهر الأعلام، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دب، 2012م، ط1، ص ص 95، 98.
- 37- نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العرب المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، دط، ص 189.
- 38- رشيد أيوب، الأيوبيات، مدرسة لسان العرب، دب، 1916م، دط، ص ص 15، 19
- 39 - امرئ القيس، الديوان، شرحه وعلق عليه: محمد الإسكندراني ونهاد رزوق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1428هـ/2007م، دط، ص 43.
- 40 - عمر بن أبي ربيعة، الديوان، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1428هـ/ 2007، ط1، ص 224.
- 41 - النابغة الذبياني، الديوان، اعتنى به وشرحه، حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1426هـ/ 2005م، ط2، ص 23.
- 42 - مختار ملاس، دلالة الأشياء في الشعر الحديث: عبد الله البردوني نموذجاً، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2002م، دط، ص 109.
- 43 - جان ستاروبنسكي، النقد والأدب، تز: بدر الدين قاسم، دون دار النشر، دمشق، 1976م، دط، ص 251.